الفصل الرابع

مشاهد أسرية في سورة مريم
دراسة معرفية واجتماعية

عمران سميح نزال[1]

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، الذي خلق الناس من نفس واحدة وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً. والصلاة والسلام على من أُرسل رحمة للعالمين، وبُعث في الأميين رسولاً يتلو عليهم آيات القرآن الكريم ويزكيهم خلقاً ويعلمهم الكتاب وما ينفعهم، ويعلمهم الحكمة وما يضرهم، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً مبيناً، ورضي الله عن أتباعه الصادقين من أهل بيته وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد.

فتأخذ العلاقات الأسرية حيزاً كبيراً من مبادئ الإسلام وقيمه وأحكامه، لما لهذه العلاقة من مكانة في أصل الوجود كله. وأولى هذه المبادئ أن الاستخلاف في الأرض هو لآدم عليه السلام وزوجه حواء وليس لأحدهما دون الآخر؛ أي: إنّ الاستخلاف هو للأسرة وليس لآدم وحده ولا لحواء وحدها، ولذا، جاءت أحكام الإسلام تنظم محطة اللقاء الأولى بين آدم وحواء، وبين الرجل والمرأة وبين الذكر والأنثى؛ لأن كلّ واحد منهما مخلوق بطبيعة خاصة وفطرة نوعية وقوة متميزة ووظيفة متوافقة، ورغبة متبادلة وشهوة غريزية وعاطفة طاهرة، وعفة غامرة وحواس مدركة وعقل فعال، ولسان مبين وعلم تكاملي، وتصديق

(١) باحث متخصص في الدراسات الإسلامية والفكر السياسي، وعضو اتحاد الكتاب والأدباء الأردنيين. البريد الإلكتروني: omran_nazal@yahoo.com.

obeikan.com

بالحق وعمل بمقتضاه، وطمأنينة روحية وبحث عن الحقيقة، ودعاء للقدير، واستجابة للرحيم.

وموضوع الأسرة في غاية الأهمية في تكوين مجتمعات متينة، فأوصاف الأسرة المسلمة هي القمة العالية والقيمة العلية، فالأزواج والأبناء والآباء في المجتمع الإسلامي في هناء عام وسعادة كبيرة، وانتظام واضح ونظام معقول. والأسرة من الأهمية بحيث جعلها الإسلام مدرسة أولى في تربية الأبناء وتحقيق النجاح لهم في مرحلة التأسيس الضروري قبل المدارس الابتدائية والثانوية الرسمية، وقد جعلها الإسلام بلداً طيباً يخرج نسله بإذنه ربه طيباً، وإلا كان نبتاً خبيثاً لا يخرج إلا نكداً. والأسرة في الحياة الإسلامية جنة أرضية، ومحطة نووية منتجة للذريات البشرية وتكوين الأسر الإنسانية الممتدة منها كلما كبر الأبناء واتخذوا لأنفسهم أسراً نواتية جديدة، وهي في انتماء وترابط مع أسرهم الأولى والأكبر منها وما سبقها فيما عرف بالأسر الممتدة والواسعة، التي تكوِّن الحمائل والأفخاذ والعشائر والقبائل والشعوب، وإقامة التعارف بينهم والتعاون على البر والتقوى وعدم التعاون على الإثم والعدوان. ومهما كبرت الأسرة أو صغرت فهي في الإسلام حجر أساس لبناء المجتمع وفي انتظام مع مقوماته ومكوناته كلها، وهذه نعمة من نعم المولى ﷻ.

وإن سلطة الأبوين في الأسرة الإسلامية هي استجابة لفطرة الرعاية للأطفال والأبناء الصغار، حتى يشتد عودهم وتقوى شكيمتهم، وينمو بدنهم مع نمو عقلهم، فإذا ما بلغوا في أجسامهم سن الشباب وبلغوا في عقولهم سن الرشاد دخلوا في سن تحمل المسؤولية العقلية والقانونية، التي يطلق عليها في الشرع سن التكليف والمحاسبة الدنيوية والأخروية. والسلطة الأبوية في الإسلام هي رحمة أبوية ومدرسة تربوية، لا سلطة لها على الأبناء بعد البلوغ الجسدي والعقلي إلا بالحسنى؛ أي فضلاً زائداً من الآباء وطاعة اختيارية من الأبناء، وإلا، فالأبناء بعد البلوغ في حياة مستقلة وحرية تامة

في بناء حياتهم الخاصة. لا إكراه في الزواج للذكر والأنثى، ولا إكراه في مكان العيش ونوعه ولا نمطه، فمن تابع أبويه وعائلته وقبيلته في كل ذلك أو بعضه فهذا خياره وقراره في المجتمع الإسلامي، فالأسرة أمن وأمان حيثما أقيمت الفطرة وأحكام الإسلام، ولا ينزع منها الأمن ولا الأمان إلا أهل البغي والعدوان. والأسر في عصرنا تعرضت للبغي والعدوان، وفقد بعضها الأمن والأمان مما تطلب إعادة النظر في الأسس والأركان والبنيان. ولا يمكن الحديث عن بناء الأسرة المسلمة المعاصرة إلا بالحديث عمّا تعرضت له من اختلال في الأسس والأركان، فكان لا بدّ من بيان الانحراف الغربي في مسألة الأسرة والنظام الاجتماعي، وأثرهما البالغ في المجتمعات والأسر الإسلامية، وذلك بدراسة جانبين مهمين أيضاً، وهما:

الأول: الجانب المعرفي، وهو أن الإنسان بحاجة إلى العلم الحق والهدي المستقيم ولو كان مصدره من الدين. والغرب أبعد هذا المصدر عن أن يكون مقبولاً، فضلاً عن أن يكون مطلوباً. وكان لا بدّ من بيان بطلان دعوى أن التقدم العلمي و"التكنولوجي" يؤدي إلى تحرير الإنسان من الأديان، بل هو سلاح معرفي لخدمة الإنسان وسعادته، وقد يقوده بعضهم إلى تحدير الشباب والفتيات نحو الشهوات فقط، وإلى فساد في الأسر والمجتمعات.

الثاني: أن قيم الفلسفة الصحيحة والدين الحق هما مصدر واحد في بناء الإنسان معرفياً، وفيهما ضمان إشباع لكل الغرائز البشرية والعاطفية بالطرق الأزكى والحياة الأطهر، مع المحافظة على الشباب والفتيان في البنية الأسرية والاجتماعية وحماية كافة حقوقهم ومنع الظلم عنهم سياسياً.

إن رسالتنا هذه تقوم على محاور عدة، هي:

- بيان محور رسالة الإسلام المعرفية في إقامة العلاقة بين المخلوق القارئ والخالق العالم، وأنها طريق مستقيم في المعرفة والعلم والعقل والتفكير والوعي والتصديق والاطمئنان والإيمان.

- بيان منهجية هدي القرآن الكريم وبيانه النبوي الكريم في تكوين الأسرة عن طريق تعليم الحق والصواب، وهو ما بيّنته سور القرآن الكريم من خلال مشاهد أسرية قرآنية نذكر منها: سورة مريم نموذجاً قرآنياً، وبيان أن ذلك قام على أساس الاستخلاف الأسري.
- بيان مظاهر انحراف الحضارة الغربية، ودورها في تدمير الأسرة بعامة والمرأة بخاصة.

أولاً: التأسيس المعرفي في علاقة المخلوق بالخالق سبحانه وتعالى

تقوم علاقة المخلوق بالخالق في الإسلام على القبول والرضا وليس على الإذعان والخضوع والاستسلام، وليس على تخلي الإنسان عن عقله إذا أراد ان يؤمن بالدين ويتبعه، فهذا تصور غربي عمّمته الفلسفة الغربية على علاقة الإنسان بالدين، مما لا يقبله الإسلام في علاقة المسلمين بدينهم ولم يقبله القرآن الكريم في علاقة الناس مع خالقهم في كل رسالات الأنبياء جميعاً، وإنما أقام العلاقة على أساس معرفي مبني على حرية الاختيار وعدم الإكراه في الدين. وفيما يخص رسالة الإسلام الخاتمة بنبوة محمد بن عبد الله ﷺ بدأها الله -تبارك وتعالى- بالأساس المعرفي العام في كلمة القراءة، فقال تعالى في مطلع السورة الأولى وفي أول ما نزل من القرآن: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ ﴾ [العلق: ١ - ٤]. وفي ذلك دلالة على أن الإسلام يبدأ خطابه للناس بتعليمهم طريقة في التفكير تبدأ بالقراءة وطلب العلم وعقل كل ما تدركه الحواس، فالقراءة ليست حصراً على الكلام المكتوب والمدوّن، وإنما بقراءة الواقع المحسوس وإدراكه بالحواس وعقله معنوياً وبيانه لسانياً، وتكوين العلم الصحيح عنه بمطابقة الواقع لما تحقق في الذهن من معانٍ. ومن هنا، كان تعريف الإنسان -وبناءً على هذه الآيات الكريمة- على أنه مخلوق قارئ،[1]

(١) نزال، عمران سميح. **فهم الإنسان.. النظرية المعرفية العربية**، عمان ودمشق: دار القراء ودار قتيبة، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ص٢٠٩.

خُلق من علق ليصبح إنساناً كاملاً في بلوغه الجسدي وراشداً في بلوغه العقلي، والقراءة طريقة تعليم الإنسان كيف يعقل ويتكلم ويفكر كما أن الأكل طريقة بناء الإنسان بدنياً ونموه جسدياً. ونحن هنا نسأل أهل العلم والدين معاً: هل منكم من حصَّل علمه من غير قراءة؟! الجواب: لا. إذن، فإن القرآن الكريم عندما يأمر بالقراءة فإنه يأمر بالعلم بوصفه منهجاً، فهو لم يأمر بنوع العلم وإنما أمر بطريقة طلبه، وهذه مطالبة لا تلغي حرية الإنسان بطلب الحقيقة وإنما تحثه عليها، وفي الاستنباط الأصولي، يمكن القول إنها تأمره بتشغيل الوظيفة المعرفية التي توجد في كل إنسان، وهي ما تميزه عن غيره من المخلوقات الأخرى. وعليه فإنّ دين الإسلام لا يقوم إلا على العقل والعلم والتفكير، بدليل أن مفتاحه المعرفي يأمر بالقراءة واتخاذها منهجية معرفية لفهم الواقع وفهم الوحي المنزل. بعد ذلك، فلا يمكن قبول إسقاط أقوالهم عن الأديان -بعدم قبولها- على دين الإسلام. ومن الأدلة الواضحة على ذلك الحياة الفكرية الإسلامية المعرفية والاجتهادية التي أنتجت ملايين الكتب والموسوعات العلمية في التاريخ الإسلامي.

إنّ في السور المكية مئات الآيات التي تحث الإنسان على النظر والإدراك وهي تخاطب بداية غير المسلمين؛ لأن الإسلام يريد من الإنسان أن يكون قارئاً وعاقلاً ومفكراً وعالماً وفاعلاً حراً أولاً، وبعد ذلك يقرر هو بنفسه أن يكون مسلماً ومؤمناً أو لا يكون، وحتى لو دخل في الإسلام وراثة؛ أي عن طريق والديه وأسرته ومجتمعه، فإن الإسلام يطالبه بالتفكير ومعرفة حقوقه الفردية، وهو ما أكّدته أوائل السور المكية، فقال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ [المدثر: ٣٨]، فهذه الآية تتضمن حرية الإنسان، بدليل أنه مسؤول عن كسبه، ولا يكون محاسباً عن كسبه إلا إذا كان حراً في فعله.

إن تركيز القرآن الكريم على بناء الإنسان المسلم المؤمن كبير جداً؛ لأن بناء الإنسان هو أساس كل بناء اجتماعي أو اقتصادي أو سياسي (أسري أو قبلي أو وطني أو قومي أو دولي). أما ضمانة ثبات الإنسان المسلم على إيمانه وصدقه

وعمله الصالح فهو رغبته بالخلق الحسن في الدنيا ونوال رضوان الله وجنته في الآخرة، فالأخلاق الفردية عامل قوة في الثبات على الحق بقناعة خالصة مهما كانت الصعاب. ولذلك، خاطب القرآن الكريم المسلم المؤمن بالصيغة الفردية في مواضع كثيرة منها: قول الله تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ [طه: ٨٢]، وقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [القصص: ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [القصص: ٨٠]، وقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الكهف: ٨٨].

والملاحظ على هذه الآيات الكريمة أنها كلها آيات مكية؛ أي إنّ مهمة القرآن المكي أن يبني الإنسان المسلم المؤمن في شخصية إسلامية مستقلة؛ فهذه الآيات تبني الإنسان وهو فرد ومتعلم وحرّ، حتى يكون قادراً على القيام على نفسه بما يصلحها، وأن الأولوية في البناء هي للفرد من حيث المستويات الوجودية الثلاثة (الفردية والاجتماعية والسياسية)، فالبناء القوي هو الذي يؤسس على الإنسان الحر المتعلم، حتى تكون مواقفه المعنوية العقلية والإيمانية بقناعة شخصية منه، وليس تحت تأثير أحد ولا إكراه أحد سواء كان بالتصديق أو بالتكذيب؛ أي، على أساس الحرية الحقيقية للإنسان والقناعة العقلية الذاتية مباشرة، فلا تقليد في قبول الإسلام والإيمان به، بل لا بدّ أن يجدد المسلم تصديقه العقلي بالإسلام عند البلوغ الجسدي، وأن يكون فاعلاً في قراءته ومعارفه وعقله وعلمه وتصديقه وإيمانه وعمله، وحتى يكون احترامه للقانون عن علم وقناعة في الحياة الفردية قبل احترامه للقانون الاجتماعي والدستور السياسي.

وهذا ما يجب على الفكر الإسلامي أن يحافظ عليه ويدعو إليه بشدة، وأن يتجنب الفكر الذي يريد من الإنسان أن يكون مقلداً أو تابعاً للآخرين من غير حرية ولا قناعة ولا قرار منه، فالخلافة الآدمية تبيّن للإنسان مكانته المعنوية في الوجود، وتبيّن له دوره في الحياة الإنسانية، وإسهامه في بناء الحياة الاجتماعية،

حتى يكون قادراً على المشاركة في بناء المجتمع المدني على معرفة وعلم واحترام. ودور العلم المُنزل أن يرسم للإنسان المسلم المؤمن خارطة الطريق التي تبيّن له مسؤوليته، ولا تصادر منه حريته ولا تلغي إرادته ولا تبطل استقلاله. هذا الإنسان المعرفي الذي يهدف الإسلام إلى جعله يبني نفسه بنفسه، فلا يمنعه من قول ما يعتقد بصوابه بل يحثه على حرية الرأي في صور كثيرة منها النصيحة والتوصية والحوار والشورى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرها. وطالب الإسلام المسلمَ المؤمن القيام بكل هذه الواجبات، ولا تتم واحدة منها إلا بإطلاق حرية الرأي وجعلها عبادة يتقرب المسلم بها إلى الله تعالى رغبة في الثواب ونوال الرضوان، والآيات القرآنية والأحاديث النبوية واضحة البيان بذلك، وبكل المناهج المعرفية القرآنية التي أنزلها الله تعالى في القرآن الكريم.

إن الإسلام يبني الإنسان المسلم معرفياً وعقلياً، ويعوِّل على هذا البناء المعرفي والعقلي القويم في تثبيت المسلم على الحق وعدم الانهيار أمام الباطل الضعيف، ولا يأمر الإسلام المسلم أن يتخلى عن عقله وتفكيره إذا أمره الله تعالى بمعروف أو نهاه عن منكر، وإنما أمره بأن يتفكر بكل ما كتبه عليه، وأن يبحث عن معقوله ومقصده وصلاحه فيه، ذلك أن التشريع والشريعة في الإسلام إنما مدارها على صلاح معاش الناس، وبما يعود عليهم بالنفع ويبعد عنهم الضرر، ومثال ذلك من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ ﴿٢٢٠﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٩ - ٢٢٠].

إن قضية الخمر والميسر من المشكلات التي تواجهها كل دول العالم، وبعضها يحاول أن يمنعها أو يخفف من سلبياتها ولكن دون جدوى، لأنهم جعلوا قرار أمرها بأيدي المنتفعين منها فقط دون المتضررين، بينما عرضها القرآن على مشروعية العقل والتفكير الدنيوي قبل الموقف الأخروي؛

فأوضح بأنّ فيهما إثماً كبيراً، والإثم وصف للفعل الذي لا يعود على فاعله إلا بالتأخير والبطء والسوء،[1] "فالإثم مشتق من ذلك؛ لأن ذا الإثم بطيء عن الخير متأخر عنه."[2] فالأصل اللغوي لكلمة الإثم يحمل معنى الذم، بل والمسبّة لمن يوصف به قبل مجيء المعنى الشرعي ليحمل على فعل الذنب المحرَّم من الله تعالى، ولذا، فإن كل ما هو مذموم من الأفعال بين الناس هو مذموم عند الله كذلك؛ أي: إنّ المعنى اللغوي لا يغادر المعنى الشرعي ولا يعارضه، ولكنه مطلوب في فهم فقه الكلمة لغةً حتى يتم فهم كلمات القرآن الكريم باللسان العربي الذي أنزلت به. ولذا، فالآية تصف الخمر والميسر بالإثم الكبير؛ أي الفعل والضرر الذي يؤخّر الناس عن الخير ويعود على فاعله بالذم، فهذا الفعل منكر بالمقياس الدنيوي العام، فإذا كان فيه نفع لبعض الناس فإنه منكر بالمقياس الدنيوي، لأنه يلحق بفاعله الضرر الكبير ويؤخر فاعله عن الخير بدرجة أكبر من النفع الذي يحققه منه، وما كان ضرره أكبر من نفعه فلا يتمسك به عاقل، وهذا معيار عقلي ومعرفي دنيوي قبل أن يكون من موازين الشرع أيضاً، ولكن طريقة بعض العلماء في فهمهم للدين جعلهم يركزون على المفهوم الديني فلم يذكروا المفهوم الدنيوي، وبالأخص في الأمور التشريعية التي تنص على الحلال والحرام. ومن أسباب ذلك تركيز علماء معاجم اللغة العربية على المعاني الشرعية والاصطلاحات الدينية؛ لأنهم كانوا علماء في الأصول العقدية والفقهية كذلك، فلم تدرس عند غالبيتهم كلمة "الإثم" لغة إلا نادراً، ومثالاً على ذلك: تجنّب علاّمة اللغة ابن دريد الخوض في فهم كلمة "الإثم" لغة؛ إذ قال: "والآثام لا أحب أن أتكلم فيه؛ لأن المفسرين يقولون في قوله جل وعز: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٨]، قالوا: هو واد في

(١) ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم. **لسان العرب**، بيروت: دار الفكر ودار صادر، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ج١٢، ص٧.

(٢) ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا. **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: شهاب الدين أبو عمرو، بيروت: دار الفكر، ط٢، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ص٥٩.

النار والله أعلم؛"[1] أي إن المعنى الشرعي غطّى على المعنى اللغوي منذ القرن الرابع الهجري، بينما المطلوب دائماً تفعيل المعنيين معاً؛ لأن المقصود أن من يفعل الزنا يلقى الضرر العام على نفسه ومجتمعه في الدنيا أولاً، ثم العقاب في الآخرة.

ولذلك، لما أعقب القرآن الكريم هذا المعيار للخمر والميسر بالمعيار الدنيوي، أجاب عن سؤال الإنفاق، فقال: (العفو)، فَنَشْرُ العفو بين الناس خيرٌ من الإنفاق من المال الذي مصدره الضرر الأكبر الذي يعود على المجتمع كله. وقبل أن تنتهي هذه الآية الكريمة من حكمها العام بيّنت للناس وللمؤمنين الميزان المعرفي في ذلك -الذي جعله الله تعالى معياراً معرفياً- لأهل الدنيا كافة، وهو أن الله يبيّن للناس آياته التي تبين معايير الحق وموازين القسط حتى يتخذها المؤمنون مقياساً أو منطقاً في فهم الشؤون الدنيوية، فقال سبحانه: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي ٱلدُّنْيَا ﴾ [البقرة: ٢١٩ - ٢٢٠]؛ أي إن التفكر في الدنيا مطلب قرآني وفرض شرعي، فالله سبحانه وتعالى يأمر المؤمنين بالتفكير في الدنيا، وهذا أمر قلّما تعرّض العلماء له. وإذا أمر الله به منهجاً في فهم موازين الحلال والحرام فلكي يكون من معايير المعرفة وموازين العقل ومناهج العلم التي يسلكها المؤمنون في مخاطبة الناس إذا ظنوا أن التزامهم بالحلال والحرام في أمر الخمر والميسر قائم فقط على خطاب الشارع دون وعي من المسلمين والمؤمنين لأسباب التحريم، فالأصل فيها التفكير في الدنيا أولاً، ثم التفكير بالآخرة، ليكون الالتزام بموازين المعرفة الصحيحة في الدنيا يؤدي إلى التزام شرع الله تعالى الذي يثيب عليهما معاً بالخير في الدنيا والآخرة.

وهذه منهجية معرفية يغفل عنها الغرب وفلاسفته الذين لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه، وما تعلموه من عداوة له في أُسَرِهم ومدارسهم الابتدائية

---

(١) ابن دريد، أبو زكريا محمد بن الحسن. **جمهرة اللغة**، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ج٢، ص٤٣٧.

والثانوية. ولذلك، فهم يظنون أن المسلمين إذا ما أتيح لهم أن يتعلموا في الغرب قيمه وفلسفته وحضارته فإنهم سوف يتخلون عن الإسلام وقيمه وعاداته، وأنهم إذا ما عاشوا في الغرب وفي مجتمعاته المفككة والمضطربة اجتماعياً والمنهارة أخلاقياً فإنهم سوف يفرحون به، وسوف ينسون أحكام الأسرة في دينهم، وأنهم بمجرد مغادرتهم الحياة الجبرية التي تفرضها الأنظمة الاستبدادية -أو الدينية بحسب زعمهم- فإنهم سوف يسارعون في التخلي عن أنماط عيشهم الأسري والتحرر من عادات مجتمعاتهم في التعامل مع الآباء والأمهات، ومع الإخوة والأخوات والأرحام، بل وفي العلاقات الأسرية الجنسية كذلك، وأنهم سوف يتّبعون الغرب ليس في مأكله ومشربه ولباسه فقط، وإنما في التمسك بعاداته الاجتماعية في التعامل مع المرأة -سواء كان تعاملهم مع أزواجهم أو بناتهم أو أمهاتهم أو جاراتهم- على طريقة اتخاذ الأخدان والسفاح باسم الحرية أو التحرر أو العشق أو الحب أو غيرها، ولكن هيهات؛ فغالبية الأسر المسلمة في الغرب متمسكة بدينها وملتزمة بأحكامه الأسرية والاجتماعية، بل هي اليوم تُحارَب بسبب تمسكها بلباسها وقيمها الاجتماعية، حتى جعلوا منها معركة مع الإسلام والمسلمين باسم الحجاب.

ثانياً: الاستخلاف الأُسَري المعرفي والعلمي

خاطب الله الملائكة بأمر الاستخلاف لآدم في الأرض، وكان منهم التساؤل عن مخاطره، وكان جواب المولى ﷻ بأن المستخلف مخلوق معرفي ومتعلم، وهذا مستفاد من قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴿٣١﴾ ﴾ [البقرة: ٣١]؛ أي إنّ هذا المخلوق المستخلف هو مخلوق قابل للتعليم، وقابل لأن يحمل رخصة قيادة في الأرض هي رخصة العلم (أو شهادة العلم)، والعلم هو العلم المُنزل من الله تعالى على أنبيائه. ثم أمر الله آدم أن يسكن الجنة وأمر معه بالسكن زوجه حواء؛ أي أن يكون السكن لهما معاً. وجاء الخطاب لهما بعد ذلك بصيغة المثنى وليس بالصيغة المفردة ليعلمهما بأنهما محل الخطاب، فقال تعالى:

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١٩]، وقال تعالى: ﴿ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [البقرة: ٣٥]. في هذه الآيات الكريمة طلبٌ بالسكن في الجنة لآدم وحواء معاً، ونهيٌ عن الأكل من الشجرة منهما أيضاً، وتحذيرٌ أن يكونا -آدم وحواء- من الظالمين. فعُلم أن السكن في الأرض هو للحياة الزوجية الأسرية التي جمعت بين آدم وحواء وليس لآدم وحده ولا لحواء وحدها، وأن الله العليم الحكيم قد حفظ هذه الأسرة من الظلم، بأن أنزل على آدم العلم والحكمة، فإن اتبعها هو وزوجه فهما من السعداء حيثما أسكنهما ومن الآمنين في الجنة، وإن خالفاها فهما من الظالمين العاصين.

من الملاحظ -وفي السياق القرآني لقصة آدم وحواء في القرآن الكريم- أنّ تعلُّم الأسماء لآدم كان قبل أن يسكن هو وحواء الجنة. فتعلُّم آدم الأسماءَ هو فعل معرفي، وسَكَنُ آدم مع حواء هو فعل اجتماعي، وبذلك قدّم المولى ﷻ التأسيس المعرفي على التأسيس الاجتماعي، والتأسيس المعرفي هو التأهل بالعلم والتأسيس الاجتماعي هو التأهل بالزوجة والسكن معها وتحمل المسؤولية معاً، والربط بين المعرفة والاجتماع هو ربط بين التعليم الصادق والحياة الزوجية الصالحة، والمعرفية الاجتماعية هي المنهجية والقيم العلمية التي يتوجب على الزوجين التمسك بها قبل الزواج ومعه وبعده. وهي قانون عام للأزواج والأبناء والأسرة جميعها، وهي ضمانة للخير في الدنيا والنجاة في الآخرة. ولكن آدم -وقد خلقه الله وأكرمه بالعلم والزوجة والسكن في الجنة والأكل منها حيث يشاء رغداً- ما كان له أن يعصي ربه إلا إغواء، فلولا أن هناك عدواً يقف له بالمرصاد ما خرج من الحياة الاجتماعية الهانئة في الجنة. وهذا العدو هو مخلوق من الجن اسمه "إبليس".. يحسن التحايل على آدم وحواء، ويدخل عليهما من أبواب النصح والغرور ليخرجهما من الجنة وعن الصراط المستقيم، فهو يأتي لآدم من باب النصح والحرص، مظهراً التودد بأنه يريد

مصلحة آدم وحواء ومصلحة الأسرة التي تجمعهما وأن يكونا من الخالدين في نعيم الجنة، ولكنه في الحقيقة لا يريد لهما إلا ما يريد العدو لعدوه، فهو شيطان رجيم لا يهدف إلا إلى إبعاد آدم وزوجه عن هدي ربهما وأن يكونا من الظالمين، وإخراجهما من الحياة الاجتماعية الهانئة؛ أي إنّ غايته أن يوقع آدم وزوجه مما حذرهما ربهما منه بأن يكونا من الظالمين، ولا يكون ذلك إلا بإخراجهما عن المنهج المعرفي القويم، فقال تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠ - ٢١]. لقد اتّبع إبليس مع الأسرة الأولى بدلاً من المنهج المعرفي الرباني منهجاً آخر يقوم على:

- الانفراد بالخصم، بالوسوسة لكل واحد حتى لا يشعر الآخر منهما أن كليهما مستهدف بهذا الخطاب.
- إضعاف الخصم، بأن يبدي لهما ما غطي من سوآتهما، بمعنى أن يكشف عن عيوبهما.
- التأويل المخادع للأمر الإلهي بالنهي عن الأكل من الشجرة، بأنه إخراج لآدم وحواء عن إنسانيتهما، أو لهذه الأسرة عن إنسانيتها إلى أن تكون من الملائكة أو الخالدين، وهما ليسا من الملائكة وليسا خالدين.
- القسم والحلف واليمين بأنه صادق في نصحه لهم.
- التدليل، وهو الغرور في الاستدلال والدلالة بهدف خفض المكانة والتخسير.

أي إن إبليس لما أراد إخراج آدم وحواء من الحياة الاجتماعية الهانئة في الجنة لم يدخل عليهما بالطلب المباشر بمعصية أوامر الله تعالى، وإنما زيّن لهما حياة اجتماعية أخرى، وأقسم لهما بأنه ناصح لهما دون أن يقدم علماً بديلاً، فبقي القرار لهما في الثبات على الحياة الاجتماعية التي أمر بها الله،

أو التي نصح بها إبليس. وبعض هذه المعاني موجودة في كتب التفسير،[1] ولكن نفصّلها بوصفها مناهج في الخداع المعرفي عوضاً عن الحجة والبيان والبرهان، التي هي مناهج معرفية قرآنية لإقامة الحق وإثبات الصدق، ولم يتنازل إبليس عن هذه المنهجية في تزييف الأمور حتى اليوم والغد وإلى يوم يبعثون، ونفصّلها لكونها مناهج في الخداع الاجتماعي التي يزينها إبليس وأتباعه للناس، بأن هناك حياة اجتماعية أجمل وأحلى وأسعد من الحياة الاجتماعية التي أمر بها الله تعالى. أما وقد أزلّ الشيطان آدم وحواء عمّا كانا فيه من الحياة الاجتماعية في الجنة، فقد وجب عليهما الهبوط جميعاً إلى الأرض لتستمر الحياة الأسرية بين أبناء الأسرة الأولى من آدم وحواء، وليستمر التعليم للكتاب والحكمة والأمر باتباع الهدي المنزل من الله تعالى، واجتناب نواهيه، والتحذير من اتّباع سبل الشيطان الذي ناصب بني آدم العداء كما ناصب أبويهما من قبل وإلى يوم الدين، فقال تعالى: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [البقرة: ٣٦ - ٣٩]. فعُلِم من هذه الآيات الكريمة أن الأسرة المتبعة للعلم والحكمة هي الأسرة الناجحة والناجية، وأن هدي الله تعالى وما أنزله على رسله من شرائع قيمة هي سفينة النجاة لمن ركبها بحرية وإرادة وقناعة ورضا، وعُلم أن مخالفة أمره سبحانه هو مخالفة للعلم أولاً واتباع لسبل الشياطين ثانياً، فهو سبيل المنكرين للعلم والمتبعين للجهل من الإنس والجن معاً.

---

(١) الطبري، محمد بن جرير. **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، القاهرة: دار هجر، ٢٠٠٨م، ج٥، ص١٨٦. انظر أيضاً:

- الماوردي، أبو الحسن علي بن الحسن. **النكت والعيون**، تحقيق: خضر محمد خضر، مراجعة: عبد الستار أبو غدة، الكويت: وزارة الأوقاف، ط١، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ج٢، ص١٨.

فإذا واجه آدم وزوجه -عليهما السلام- نوعاً واحداً من الشياطين وهم شياطين الجن، فإن ذريته من بعده تواجه نوعين من الشياطين؛ شياطين الجن من ذرية إبليس، وشياطين الإنس ممن اتخذ من بني آدم لنفسه سبيلاً في الحياة الدنيا لا يختلف عن سبيل شياطين الجن، بل هو لهم تبع في إنكاره وجحوده للعلم المنزل من الله تعالى، واتخاذه من عداوة الأنبياء والصدّ عن سبيل الله مصدر حياته وربحه الدنيوي، وهو عن العلم الحق والمعرفة الصادقة من المعرضين، ولكنه بأساليبه الشيطانية الخفية والظاهرية يدّعي أنه هو من ينتج المعرفة الصحيحة والعلم القويم ويدعو الناس لاتّباعه، مدّعياً أنه من العقلاء والمصلحين.

إن هذا النوع من الناس الذين لا يتّبعون هدي الله ولا هدي نبيه الخاتم وشرعه المستقيم قد وصفهم الله بلفظ الكفر؛ لأنهم غير متّبعين لسبل المعرفة الصحيحة ولا مناهج العقل المستقيم، فكلمة الكفر بالمعنى اللغوي هي التغطية،[1] وذلك ليبين أنهم مغطّون للحق ومنكرون له ويصدون الناس عن اتباعه، فالكفر وصفٌ لمن أنكر الحق معرفياً فلم يصدقه، ووصف لمن أنكر العقل فأعمى بصره وأبكم سمعه وجمّد حواسه أن تكون منتجة للعلم الحق، أو متبعة للصراط المستقيم؛ أي إن سبيل المعرفة والعقل والعلم هو سبيل المصدقين بالحق والمتبعين للطريق المستقيم، وأولئك من يستحقون وصف الإيمان الذي استعمله القرآن وصفاً معرفياً وعقلياً وعلمياً. وهذا التوجيه المعرفي كما كان منهجاً للأسرة الأولى (أسرة آدم وحواء) في التمسك بالعلم الحق أولاً واجتناب الإثم ثانياً، فإنه منهج معرفي لكل أسرة من ذريتهما بوجوب الأخذ بالمنهج المعرفي سبيلاً لإقامة الحياة الاجتماعية القويمة، وكما لم تقم الأسرة الاجتماعية الأولى من غير منهج معرفي علمي، فكذلك يستحيل على كل جيل ماض أو حاضر أو

(١) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مرجع سابق، ص٩٣٠. وانظر:
- نزال، عمران سميح. **فلسفة القوة وتكوين الدولة في الإسلام**، دمشق: دار قتيبة، ٢٠٠٩م، ص٩٩. وفيه دراسة تفصيلية عن مفهوم الكفر لغة وشرعاً.

آت أن يقيم حياة اجتماعية قويمة من غير منهج معرفي صحيح، وهو الضمانة الحكيمة التي تقود الأسرة المصغرة أو الحياة الاجتماعية العامة إلى الضياع أو الرذيلة أو الهلاك.

ثالثاً: المنهاج الاجتماعي الإسلامي في بناء الأسرة

نبدأ دراسة مشاهد الأسرة في القرآن الكريم في سورة مريم، ونذكر بعض الملحوظات التي لها فائدة في هذا البحث منها:

أ- اسم السورة هو اسم امرأة، وهي السورة الوحيدة التي تحمل اسم أنثى، وكان من الممكن أن تحمل اسم زكريا؛ إذ إنّ أول ما ذكر من المشاهد الأسرية قصة زكريا عليه السلام، وهذه إشارة إلى أنّ عنوان هذه السورة هي المرأة الصديقة مريم العذراء البتول، وهي أمّ المسيح عيسى عليه السلام، فمريم هي الأم التي ليس لها إلا ولد واحد. فسورة مريم هي سورة الأم في القرآن الكريم.

ب- سورة مريم من أوائل سور القرآن الكريم نزولاً، فالراجح أن تاريخ نزول سورة مريم في العام الخامس للبعثة، وبذلك تكون من أوائل سور القرآن التي ترشد المسلمين إلى القيم الأسرية الحسنة، التي يثني عليها القرآن الكريم ويجعلها من أهم الأسس التي تقوم عليها الحياة الأسرية الإسلامية في علاقة الأب مع ابنه والأم مع ابنها والابن مع أبيه والأخ مع أخيه، في علاقات أسرية طيبة واجتماعية حكيمة.

ت- المشاهد الأسرية التي سوف نتحدث عنها في سورة مريم جاءت بأسلوب القصص القرآني، والغاية من القصص القرآني هو الاعتبار، كمال قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [يوسف: ١١١]، ويستفاد من الآية أن القصص القرآني منهج معرفي في طرق إثبات الحق، ومن هذه الطرق:

- مقصد القصة العِبرة والدرس، وهو في سورة مريم درس معرفي واجتماعي معاً.

- المستفيد من هذا الدرس هم أولو الألباب، وهم في المعنى القرآني عقلاء المؤمنين؛ أي على عقلاء المؤمنين أن يبحثوا في القرآن الكريم عن مناهج الحياة الاجتماعية الهانئة وأن يتدبروا في أسسها القرآنية.

- القصص في القرآن حقائق لا افتراء فيها إطلاقاً، فهي من علم الله تعالى عالم الغيب والشهادة.

- القصص دليل على صدق نبوة محمد ﷺ ومن يحتج به من المؤمنين، فهو مصدر إيماني؛ أي مصدر الحقائق التي يتوجب على المؤمنين أن يؤمنوا بها ويصدقوها، وهي من المعلومات التاريخية وما وقع في الماضي لأنبياء الله تعالى مع أبنائهم أو أمهاتهم أو آبائهم أو إخوانهم أو زوجاتهم؛ أي ما وقع مع أنبياء الله تعالى وأسرهم وفي حياتهم الاجتماعية.

- في القصص القرآني الاجتماعي تفصيل غير موجود في غير القرآن الكريم، وفيه ثناء على الحياة الاجتماعية للأنبياء والرسل -عليهم السلام-، وفيه تنزيه لهم عن المعاصي وارتكاب الفواحش الاجتماعية.

- في القصص القرآني هداية وتعليم وإرشاد ورحمة للمؤمنين، وفيه النموذج الإنساني والاجتماعي الحقيقي، وليس المثالي غير القابل للتحقق مرة أخرى على أرض الواقع؛ أي إنّ الحياة الاجتماعية لكل أنبياء الله ورسله التي ذكرت في القرآن، قابلة لأن تكون حياة اجتماعية نموذجاً لكل مؤمن ومؤمنة في الاستقامة والثبات على الحق والصبر على الأذى، ولو كان من أبناء الأسرة الصغيرة، وبالأخص في حواراتها المعرفية بين أعضاء الأسرة الواحدة كما في حوار إبراهيم عليه السلام مع أبيه، وحوار لقمان عليه السلام مع ابنه، وغيرهما.

obeikan.com

وبذلك، فإننا نستنبط هذه الأحكام الأسرية الاجتماعية بمنهج الاعتبار القرآني، والمنهج الاعتباري هو: "النظر في المسألة مع استحضار نظائرها والالتفات إلى لوازمها ومراعاة نقائضها مع صحة المناسبة."[1] والمنهج الاعتباري غير المنهج القياسي الذي هو منهج اجتهادي يفيد في فتح الحديث عن هذه الأحكام الأسرية، ليتواصل الحديث عنها، أو العمل على بيان أحكام أخرى بالأسلوب المعرفي نفسه أو غيره.

ث- الحديث عن المعاني القرآنية هو نوع من التفسير أو التأويل، والفارق بينهما أن التفسير بيان للمعاني النظرية بينما التأويل بيان للمعاني التطبيقية. فالتفسير بيان نظري والتأويل بيان عملي ينبغي أن يكون له تطبيق في الحياة العملية للمسلمين، والعلاقة بين التفسير والتأويل هي علاقة طردية في الصحة والخطأ معاً؛ فإذا زادت نسبة الصواب في التفسير وأمكن تطبيقها، فالأصل أن تؤتي زيادة في التأويل، وإذا لم يتحقق الصلاح في التأويل فهذا دليل على ضعف في التفسير النظري، مما يعني أن متابعة التأويل في الواقع وأثره في الحياة الدنيوية ومدى تحقيقه لمصالح المسلمين معيار لمدى صحة اجتهادهم النظري في فهم أصول الإسلام ومقاصده.

إن المنهج الاجتماعي الإسلامي في بناء الأسرة يحتاج إلى دراسات متخصصة وواسعة لا يحتملها هذا البحث، ويمكن أن تكون في كتب متخصصة، وفي أكثر من مجال أسري وتربوي، ولكن ما نقدمه في هذا البحث هو معالم أساسية يمكن أن نوردها في نقاط أولية وأساسية، ومنها:

- مكانة المرأة كبيرة في الإسلام، فإذا ما تمّ مقارنة ذلك بما كان عليه العهد الجاهلي الذي سبق الإسلام، فإنه يمكن النظر إلى هذه المكانة الجديدة للمرأة في المجتمع المكي والعربي والإسلامي على أنها ثورة في عالم

(١) عكيوي، عبد الكريم. **نظرية الاعتبار في العلوم الإسلامية**، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص٣٧.

القيم الخاصة بالمرأة، والتي يصفها بعضهم بالقيم التحررية النسائية. فقد امتلكت المرأة شخصيتها المستقلة، وشخصيتها العلمية، وشخصيتها المالية والإرثية، وشخصيتها الأسرية الكاملة، وشخصيتها الاجتماعية في أن تكون عضواً فاعلاً في المجتمع، وما يترتب على ذلك من حريات في العقيدة والتعبير والمشاركة في الحياة العامة وفق أحكام الدستور العام والخاص، الذي يطلق عليه الحقوق الشرعية، أو الاحتكام إلى الشريعة والقضاء لحماية حقوقها والدفاع عنها.

- أقام الإسلام الأسرة على أساس عقد اجتماعي بين المرأة والرجل متكئ على أحكام واضحة بيّنة، ولا يتم الزواج ولا تكوين الأسرة إلا على أساس هذا العقد الاجتماعي، ولا يصبح العقد نافذاً إلا بالرضا والقبول وتحقيق كل طرف منهما لحقوق الآخر بالمعاشرة بالحسنى، دون جَوْر ولا اعتداء.
- جعل الإسلام للمرأة دوراً أساسياً ومكملاً لدور الرجل لا يمكن الاستغناء عنه في تكوين الأسرة، كما لا يمكن الاستغناء عن دور الرجل، وكلاهما حرٌّ في اختيار زوجه وكفاءته والرغبة المتبادلة.
- حفظ الإسلام للمرأة حقّها في الحياة الزوجية الأسرية، وجعل حقّها في البقاء في الحياة الزوجية رهنَ إرادتها وقناعتها بزوجها، ولم يحرمها حق فسخ عقد الزواج بنفسها إذا أرادت ذلك وأدّت ما عليها من واجبات.
- أسس الإسلام المعاشرة بين الزوجين بالمعروف، وجعل للرجل على المرأة درجة في قيامه على أسرته بما يصلحها، فالدرجة في سياق المعاشرة بالمعروف وتحقيقه للأسرة كلّها، فإذا استغل الرجل درجته خارج حدود المعروف فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولو كان زوجاً أو ولي أمر.

- أودع الإسلام للحياة الاجتماعية الأسرية حقوقاً وواجبات خاصة وعامة، فما كان في حدود الحياة الأسرية الخاصة فهو في دائرة المعاشرة بالمعروف، وما أوتي الرجل من درجة، وأما ما كان من حقوق وواجبات في الحياة الاجتماعية العامة، فإن الدرجة فيها ترتفع لأولي الأمر الاجتماعيين والسياسيين للقيام على الحياة العامة بما يصلحها اجتماعياً وسياسياً.

رابعاً: مشاهد الأسرة في سورة مريم:

تتحدث سورة مريم عن ثمانية مشاهد أسرية وهي:

١- مشهد الأب والابن:

- تبدأ السورة بالآيات: ﴿ كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبًا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ ﴾[مريم: ١ - ٤]. وتبدأ الآيات بذكر مشهد من مشاهد الرحمة الربانية نحو عبد الله ونبيه زكريا؛ إذ تأدب في ندائه لربه بصوت خفي يعرض حاله -والله أعلم به-، ولكنه منهج تعليمي في أدب التعامل مع الله تبارك وتعالى، والله لم يرد له دعاءً من قبل، ولكن وصفه لحاله مقدمة لنوع سؤاله الذي يتوجه به إلى ربه فهو رجل كبير في السن حتى اشتعل رأسه بالشيب.

- ثم تتحدث الآيات عن حاجة النبي إلى اكتمال أسرته بالولد الرضيّ. قال تعالى على لسانه: ﴿ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ۝٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ۝٧ ﴾[مريم: ٥ - ٧]. والرجل الكبير يتمنى من يخلفه ويرثه من بعد موته، وأقرب الناس إليه هو ولده ومَن لا ولد له فلا وارث له، وخير الوارثين إذا كان الوارث ذكراً، فهو من يرث تماماً وحقاً، وهذه الوراثة يرجوها كلّ أب وأم إلا أن يكون بين الزوجين مانع يحول دون وجود

هذا الوريث من كبر سن الأب، أو أن تكون الزوجة عاقراً، وقد اجتمع كلاهما مع نبي الله زكريا. ﴿ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا ... ۝٥ ﴾ [مريم: ٥]، وإذا كانت المرأة عاقراً فقد انقطع الأمل من مجيء الولد واكتمال الأسرة بانعدام الأسباب، ولكن الأمر يستحق أن لا ينقطع الأمل فيه بالدعاء إلى الله وكثرة الرجاء إليه؛ لأنه رب الأسباب وخالقها، فتوجّه إلى ربه: ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ ﴾ [مريم: ٥] والولي: من يتبع غيره بالمحبة والسمع والطاعة.

- لم يستسلم زكريا للأسباب الظاهرة من كبر سنه واشتعال رأسه بالشيب، فلم يفقد الأمل من تكوين أسرة اجتماعية متكاملة من الآباء والأبناء، وفي ذلك إشارة لأفعال الأنبياء -وهم أفضل الخلق- أن يكون لهم أبناء وامتداد أسري مع آبائهم وأبنائهم.

- دعاء زكريا النبي لربه أن يهب له غلاماً بعد أن بلغت امرأته حكم استحالة الحمل الطبيعي بسبب العقم؛ أي إنّ سؤاله ينصب على تكوين أسرة ممتدة منه ومن آبائه آل يعقوب. وهذه حالة اجتماعية لا تخلو الحياة الاجتماعية البشرية منها، بأن يكبر الرجل ويقرب على الموت ولا وارث له من صلبه. والعبرة أن لا ينقطع رجاء الرجل من الولد الصالح مهما بلغ من العمر، ومهما واجهته الصعاب مثل العقم أو غيره، فإن من مقاصد الإسلام أن يكون مطلب الأسرة من الزوجة والولد؛ أي إن مطلب الولد والأسرة الطيبة هدي الأنبياء عليهم السلام.

- الشكر على النعمة، في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١ ﴾ [مريم: ٨ - ١١].

- الآيات لم تنص على نوع الوراثة إن كانت وراثة مال ومتاع أم وراثة علم ونبوة،[1] وليس شرطاً القول بأحدهما لإمكانية الجمع بينهما، ولكن الآيات ذات الاختصاص تنص على نداء يحيى أن يأخذ الكتاب بقوة؛ أي إنّ استجابة الله لدعاء زكريا تحققت بوجود الغلام، ثم بتعليمه الكتاب، وأمره بأخذه بقوة، فكان ذلك دليلاً على تحقيق مقصود دعاء زكريا بالولد بجعله نبياً يرث من أبيه ومن آل يعقوب النبَّوة، فتم تعليم يحيى وتزكيته أخلاقياً في الآيات: ﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣ ﴾ [مريم: ١٢ - ١٣]. وهو ودليل على أن العلاقة الاجتماعية الصحيحة تقوم على التأصيل المعرفي الصحيح في الحرص على تعلّم الكتاب وما فيه من النفع وتجنب الضرر، وأن طلب العلم والحكمة هو رحمة ربانية، وسبيل أصيل في الحرص على الأخلاق الحسنة، وأن كمال الإنسان هو في أخلاقه وتزكيته، وعمل بالعلم والابتعاد عن الجهل والدوام على ذلك.

- العلاقة الاجتماعية بين الابن ووالديه قائمة على البِّر وعدم الجبروت، قال تعالى: ﴿ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥ ﴾ [مريم: ١٤ - ١٥]. وقد جاء الحديث عن برّ يحيى بوالديه بعد أخذه الكتاب بقوة وإتيانه الحكم صبياً؛ أي إن القرآن قدّم التأسيس المعرفي على التأسيس الاجتماعي القويم، وفي ذلك دليل على أن الأولوية في البناء الاجتماعي القويم هي للبناء المعرفي الصحيح، فهذه الآيات تتحدث عن قصة زكريا الأب وابنه يحيى -عليهما السلام-. وفي الآيات عبر كثيرة وأحكام قيمة تحتاج إليها كل أسرة مسلمة في تربية أولادها على العلم النافع وتجنب المفاسد حتى تزكو النفوس والأبدان.

---

(١) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل. **تفسير القرآن العظيم**، بيروت: دار المعرفة، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ج٣، ص١١٧.

٢- مشهد الأم والابن:

- وتصوره الآيات الآتية: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ٢٠ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ٢١ ﴾ [مريم: ١٦ - ٢١]. مريم بنت عمران وأم المسيح عيسى -عليهما السلام- امرأة صدّيقة، وهي مثال المرأة الصالحة التي ينشدها القرآن الكريم، وضربها الله مثلاً في صدقها وعفتها وصلاحها، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩١ ﴾ [الأنبياء: ٩١]. ومريم عندما انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً دلّل على أنها كانت راغبة بالانقطاع عن المجتمع الفاسد، وأنها لم تكن تخالط قومها وانكبابهم على ملذات الدنيا وشهواتها، فلمّا تعرضت إلى ما خافت منه استعاذت بالله منه؛ أي إنّ المرأة العفيفة تخاف على نفسها وعِرضها، وتستعيذ بالله من كل شر قد تواجهه.

- قال تعالى: ﴿ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ٢٢ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ٢٣ ﴾ [مريم: ٢٢ - ٢٣]، ومع أن مريم حملت بأمر من الله تعالى، إلا أنها تمنّت لو أنها ماتت قبل أن تواجه قومها بهذا الأمر. وهذه صورة اجتماعية قرآنية تُعلي من قيمة العفة والطهارة، فمريم تعلم أنها طاهرة وعفيفة ولكنها عندما تأتي قومها بصبي وهي غير متزوجة فإنهم سيتهمونها، وهذا أمر عظيم عليها. وهي موقنة بصدقها وطهارتها، وفي ذلك إشارة إلى أن المرأة العفيفة تخشى الشُّبهة أيضاً ولو كانت موقنة بعفتها.

- قال تعالى: ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ٢٤ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ٢٦ ﴾ [مريم: ٢٤ - ٢٦]. اختلف المفسرون

في المنادي لها من تحتها إن كان ابنها عيسى أم الملك جبريل،[1] والأرجح أنه عيسى عليه السلام، لأنه تكلم بعد ذلك عندما أشارت إليه كما سيأتي، والفائدة أنه عليه السلام ساعد أُمّه وهي في ساعة ولادته، وكانت هذه مساعدته الأولى لأمه؛ مساعدة تسرية ومواساة بألا تحزن، ومساعدة تعليم بأن تهز جذع النخلة لتساقط عليها الرطب الجني، ومساعدة تواصٍ على الصبر بألا تكلم أحداً بأمرها حتى يكلموها هم، وهذا كله تعليم من الله تعالى.

- قال تعالى: ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ ﴾ [مريم: ٢٧ - ٢٨]. في هذه الآيات محاسبة قومها بما يظنونه أنه حجة صحيحة وأنهم أقوى منها حجة -وهم مخطئون-، وحجتهم أنها أخت رجل صالح ولم يكن أبوها امرَأ سوء ولم تكن أمها من أهل البغي والفواحش، وفي ذلك إشارة إلى أهمية المنبت الاجتماعي السليم، فحجتهم على مريم هي في الحقيقة حجة لمريم -عليها السلام-، فما دام هؤلاء أهلها (أخ وأب وأم) فلا يصدر عن مثلها السُّوء ولا البغي.

- قال تعالى: ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَىٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾ [مريم: ٢٩ - ٣٣]. فهذه الآيات تتحدث عن مريم الأم وابنها عيسى -عليهما السلام-، وفيه مساعدة ثانية من الابن لأمه عندما واجهت التحدي ورميت من قومها بالفِرية، فعندما ناداها من تحتها أول مرة، علمت أنه يستطيع أن يجيب عنها، فأشارت إليه ليكون جوابه -وهو في هذا السن وفي المهد صبياً- دليلاً على صدقه وهو المتكلم، وصدقها وهي التي طلبت مساعدته وكلامه عن الحقيقة. فقال أولاً: إني عبد الله؛ أي مُقرٌّ لله بالعبودية ومُقرٌّ بحقه -سبحانه وتعالى- عليَّ بالكيفية التي أراد أن يخلقني فيها، فلا حقّ لي ولا

(١) المرجع السابق، ج٣، ص١٢٣.

لأمي أن نردَّ أمراً لله ونحن عباده ومخلوقون بأمره كيفما شاء أن يخلقنا. وقال ثانياً: إن الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً؛ أي إنّ الله بعد أن خلقني أتاني الكتاب وعلمني إياه وجعلني نبياً، فأنتم الآن تكلمون من أتاه الله تعالى كتاباً ومن جعله نبياً، وبما أني صاحب كتاب فأنا صاحب معرفة وعلم بما في الكتاب، وما دمت نبياً فإن الله يعلمني وأنا أطلب منكم أن تؤمنوا بي نبياً ومعلماً، وأن تتّبعوا ما يوحى إلي من ربي. وقال ثالثاً: وقد جعلني الله تعالى مباركاً أين ما كنت فانتفعوا ببركتي، ولا تعتدوا عليَّ. وقال رابعاً: وأوصاني بالصلاة؛ أي أن أكون على صلة دائمة بالله تعالى وفي عبادة خالصة ما دمت حياً، فالعبادة لله تدوم مع الحياة. وقال خامساً: وأوصاني بالزكاة؛ أي أن أكون على صلة حسنة بالناس الذين أعاملهم وعلى خلق حسن ما دمت أعامل الناس وأخالطهم. وقال سادساً: وبراً بوالدتي: الحب والطاعة والإحسان لوالدته وهذه علاقة اجتماعية بين الابن ووالدته مبنية على البِّر من الولد لأمه، ولكنها جاءت في هذا السياق القرآني بعد النقاط الخمس السابقة -ومنها إتيانه الكتاب- دلالة على البعد المعرفي والعلمي؛ أي إنّ البناء الاجتماعي قائم على التأسيس المعرفي والعلمي ولو كان موضوعه أحد أنبياء الله تعالى. وقال سابعاً: ولم يجعلني جباراً شقياً، حتى لا تشقى والدته به، فكم من الأمهات تشقى حياتها بسبب جبروت أبنائها. وحتى لا تشقى الأمهات اجتماعياً لا بدّ أن يكون التأسيس في العلاقة الاجتماعية معرفياً وعلمياً، حتى يكون قائماً على القناعة والبيّنة. وقال ثامناً: والسلام عليَّ يوم ولدت، فلم أولد من عدوان ولا في عدوان من أحد على أحد، وفي ذلك دلالة على طهارة مولده عليه السلام. وقال تاسعاً: والسلام عليَّ يوم أموت، فلن أموت في عدوان، وفي ذلك دلالة بأنه لن يموت صلباً ولا قتلاً بل بأمن وسلام، وبأن عيسى عليه السلام كان يعلم بأنّ قومه لن يقدروا على قتله. وقال عاشراً: والسلام عليَّ يوم أبعث حياً، فلن أبعث وأنا خائف، وفي ذلك دلالة على براءته مما نسبوا إليه من ربوبية وإلوهية وأنه لا يتحمل وزرها عليه السلام.

إذن، فالمشهد الاجتماعي الذي نقرأه في هذه الآيات الكريمة هو أن الله تعالى قدّم تعليمه الكتاب وإتيانه الحكم لعيسى عليه السلام على برّه بوالدته، فهذه الصلة الاجتماعية الطيبة قائمة على تعليم الكتاب وتعليم الحكمة؛ أي إنّ برّ الأنبياء كان على معرفة وعلم. وهذا دليل على تقديم التربية والتعليم لمن يطلب الحياة الاجتماعية القويمة.

- قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [مريم: ٣٤ - ٤٠]. جاءت هذه الآيات الكريمة في مناسبة الآيات السابقة، وقبل ذكر المشهد الاجتماعي الثالث. والآيات السابقة تبين حقيقة عيسى ابن مريم -عليهما السلام- الذي ابتدع كهنة يهود للنصارى فيه عقائد ما أنزل الله بها من سلطان تسيء إلى الخالق -سبحانه وتعالى-، فنسبوا له الولد وهو العزيز الحكيم، فاختلفوا في ماهية المسيح -عليه والسلام-؛ إذ اجتهدوا فيما لا محل فيه للاجتهاد، فوقعوا في الكفر والظلم والضلال المبين كما جاء في الآيات الكريمة، فوجب إنذارهم فيما أساؤوا فيه للخالق أوّلاً، وفيما أساؤوا فيه للمسيح ثانياً، وفيما أساؤوا فيه للمرأة الطاهرة مريم -عليها السلام- ثالثاً، لأنهم قادمون على يوم حساب عسير، والله -تبارك وتعالى- هو وحده من يرث الأرض ومن عليها جميعاً. وهذا التذكير بالحق بين المشاهد الاجتماعية مهم جداً، لأنه حقيقة الوجود، وما المشاهد الاجتماعية إلا منارات تضيء مسار الناس على هذه الأرض على هدى وصراط مستقيم.

٣- مشهد الابن مع أبيه:

وتصوره الآيات: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ

أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ ﴾ [مريم: ٤١ - ٤٨]. تتحدث هذه الآيات عن إبراهيم عليه السلام وأبيه آزر؛ أي إن العلاقة الاجتماعية بين الابن وأبيه فيها كثير من المعاني:

- ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ ﴾ [مريم: ٤١]. إن إبراهيم كان صدّيقاً نبياً، فإذا كان معنى النبي مفهوماً -وهو الرجل الذي يتلقى من الله تعالى وحياً وعلماً-، فمَن هو الصِّدّيق؟ قال الراغب: "والصِّدّيق: من كثر منه الصدق. وقيل: بل يقال لمن لا يكذب قط. وقيل: بل لمن لا يتأتى منه الكذب لتعوده الصدق. وقيل: بل لمن صدق بقوله واعتقاده وحقق صدقه بفعله."[(١)] هذا تفسير أحد علماء التفسير، وهو يدور على معنى الصدق بالمعنى الديني، بينما المعنى اللغوي عند ابن فارس: "صَدَقَ: الصاد والدال والقاف أصل يدل على قوة في الشيء قولاً وغيره، من ذلك: الصدق خلاف الكذب، سُمّي لقوته في نفسه، ولأن الكذب لا قوة له هو باطل، وأصل هذا من قولهم شيء صدق؛ أي: صلب، ورمح صدق، ويقال: صَدَقُوهم للقتال، وفي خلاف ذلك كَذَبُوهم. والصِدِّيق: الملازم للصِدق، والصَّداق: صداق المرأة سميَّ بذلك لقوته وأنه حق يلزم."[(٢)] فالأصل اللغوي لكلمة الصدق القوة في الشيء، وأحد أنواعه -وهو أعمها-: القوة في القول، فالقوة في القوة صدق لأنه ثبات ولزوم للحقيقة المتضمنة في القول، فإذا لم يكن قوة ولا حقيقية في القول وصف بالكذب، ولذا، فإن الصديق وصف للرجل القوي في ذاته؛ أي: الملازم لمعاني القوة فلا يصدر عنه لين ولا ضعف في الحق، والصدق في الجانب المعنوي أحق منه في

(١) الأصفهاني، الراغب. **مفردات ألفاظ القرآن**، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دمشق: دار القلم، ط٣، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص٤٧٩.

(٢) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مرجع سابق، ص٥٨٨.

الجانب المادي؛ أي إنّ القوة المقصودة هي القوة المعنوية، فإذا قيل إن إبراهيم كان صِدّيقاً فمعناه أنه كان قوياً في تمسكه بالحق أوّلاً، وكان قوياً في قوله للحق ثانياً، والتمسك بالحق والقوة فيه لا يكون إلا عن موقف معرفي وعلمي ثابت لأنه صادر عن قناعة تامة لا ريب فيها، والقوة بقول الحق أيضاً موقف معرفي وعلمي لأنه صادر عن شجاعة؛ أي إنّ الصِّدّيق هو المتمسك بالموقف المعرفي القوي أولاً، والذي يترتب عليه التصديق به والإيمان والعمل بمقتضاه والتصريح بقوله دون خوف ولا تردد. فوصف الله تعالى لعبده بأنه صدّيق هو وصف ثناء بأنه قوي في التمسك بالحق والقول به بلسانه وكلامه، وليس من يقول الحق فقط، فمن تمسك بالحق المعرفي والحقيقة العلمية فهو الصديق في وصف القرآن الكريم، وأحق الناس بهذا الوصف هم أنبياء الله تعالى، فقوة تمسكهم بالحق المعرفي أهلتهم عند الله؛ لأن يكونوا من الأنبياء المصطفين، فالله يثني على الموقف المعرفي القوي والتمسك به والتعبير عنه بقوة وشجاعة؛ لأنه نصر للحق المبين.

- ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ ﴾ [مريم: ٤٢ - ٤٥]. القوة التي أثنى بها الله تعالى على إبراهيم ووصفه بالصِّدّيق عرّفها القرآن بموقف إبراهيم من أبيه؛ إذ وجد أباه يقوم بأعمال خاطئة فتوجّه له بنداء محبب لقلبه قائلاً: يا أبت، وتوجه إليه بالنصيحة وبوساطة منهج معرفي صريح وهو منهج السؤال، فقال: لِمَ تعبد أصناماً لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عنك شيئاً؟ فقدّم في السؤال أدلة على بطلان هذه العبادة، ثم أخبر أباه بعد نداء التودد والرحمة: يا أبت قد جاءني من العلم ما لم يأتك؛ أي إنّ ما أحدثك به هو علم وحقيقة وحق وهذا العلم قد اصطفاني الله به، فاتبعني لأن معي العلم، فإذا اتبعتني فأنت مُتبِع للعلم الذي جاءني من الله، وإذا اتّبعت العلم الذي جاء من الله فإنك سوف تهتدي إلى الصراط السّوي، الذي لا عوج فيه؛ أي إن إبراهيم ينعت

والده بالمنهج المعرفي العلمي ولا يأمره فقط باتباعه دون بيان لصحة ما يدعوه إليه، وهذا منهج بيان الحق؛ أي إن إبراهيم عليه السلام الذي وصفه ربه بأنه الصِّدّيق المتمسك بالعلم بقوة؛ إذ يدعو أباه إلى الحق وترك الباطل بالمنهج المعرفي العلمي كذلك، وهو الذي تربطه به علاقة اجتماعية من الدرجة الأولى، وهذا درس وعبرة لكل مصحح لعبادات أهله الباطلة لكي يصححها بالمنهج المعرفي العلمي، كما فعل إبراهيم عليه السلام مع أبيه. لقد كان إبراهيم عليه السلام حريصاً على والده أو أقاربه، ويظهر حرصه هذا من خلال استعمال المنهج المآلي، وهو التحذير من مآلات الأمور بعد الموت الذي يتحقق يوم الحساب، كما قال إبراهيم لأبيه: يا أبت إني أخاف عليك، وإني حريص عليك، وإني لا أرضى لك سوء العاقبة بعد الموت، لأنك أبي ولأني أحبك.

٤- مشهد الأب مع الابن والحفيد:

وتصوره الآيات: ﴿ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ﴿٥٠﴾ ﴾ [مريم: ٤٩ - ٥٠]. تتحدث الآيات عن إبراهيم مع ابنه إسحاق وحفيده يعقوب، وقد عوّض الله تعالى خليله إبراهيم بأبيه بمن هو خير منه الابن والحفيد،[1] وبأن جعله أباً لأنبياء في حياته وبعد مماته، فقد رزقه الابن (نبي الله إسحاق، ومن قبله إسماعيل -عليهما السلام-)، ورزقه الحفيد (نبي الله يعقوب)، وجعلهم أنبياء يوحى إليهم بالعلم من الله تعالى، وجعل لهم لسان صدق علياً؛ أي كانوا من أهل الحجة والبيان والبرهان في حديثهم ومخاطبتهم للناس، ولم يكونوا من أهل الإكراه والجبر في مخاطبتهم، ولذلك، كانت حجتهم هي العالية. فالمشهد الرابع في العلاقة الأسرية بين الجد والابن والحفيد هي العلاقة المعنوية في العلم والبيان ولسان الصدق والحجة العالية. وقد أثنى الله تعالى على هذه العلاقة النبوية بين الجد والابن والحفيد بأن جعلها من رحمته بهم

(١) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، مرجع سابق، ج٣، ص١٣٠.

جميعاً، فإبراهيم مرحوم إذ جعل الله من أبنائه الأنبياء، فهم ما داموا في طاعة الله فهم في طاعته وما داموا في طاعته فهم في طاعة نبي وفي طاعة الله تعالى من باب أولى. فمن عظم رحمة الله بعباده الصالحين أن تكون ذريتهم صالحة وفي طاعة الله تعالى، لأنها ستكون حريصة على طاعتها حتى تكون في طاعة الله سبحانه وتعالى، وبقدر حرصها على طاعة الله تعالى فإنها ستكون حتماً مطيعة لوالديها كذلك.

٥- مشهد الأخ مع أخيه:

وتصوره الآيات: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥١ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ٥٢ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ٥٣ ﴾ [مريم: ٥١ - ٥٣]. تتحدث هذه الآيات الكريمة عن رحمة الله تعالى بموسى. ووجه الرحمة بأن جعل له أخاه هارون نبياً؛ أي رجلاً يتلقى العلم من الله تعالى وحياً؛ أي إن الأخوّة بينهما في أقوى درجات المتانة؛ فهما داعيين لرسالة واحدة، وخير ما يجد الرجل أن يجد أخاه عوناً كاملاً له، وأن يكونا مؤمنين برسالة واحدة، فخير القرابة ما كانت قرابة في الدين والرسالة والعقيدة والدعوة والعبادة والعلم.

٦- مشهد الرجل وأهله:

وتصوره الآيات: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ٥٥ ﴾ [مريم: ٥٤ - ٥٥]. هذه الآيات الكريمة تتحدث عن إسماعيل عليه السلام وأهله، والأهل: الزوجة، وقد أخرج ابن كثير حديثاً عن النبي ﷺ قال فيه: "إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين كتبا من الذاكرين والذاكرات"، وقال رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه واللفظ له.[1] فبعد الثناء على إسماعيل بصدق الوعد والرسالة

(١) المرجع السابق، ج٣، ص١٣٢.

والنبوة مدحه الله بأنه كان يأمر أهله -أي أسرته- بالصلاة؛ أي بعبادة الله تعالى، وبالزكاة؛ أي بإحسان الخلق مع الناس ومساعدتهم والتصدق عليهم، ولذلك، كان عند ربه -بهذه الأفعال- مرضياً من الله تعالى؛ إذ كان يأمر أسرته بأداء حقوق الله وحقوق الناس، وفي ذلك تعليم بأهمية بناء الأسرة على طاعة الله بالعبادة والصلاة والزكاة وحسن الأخلاق حتى يكسبوا مرضاة الله تبارك وتعالى، فالثناء بالرضا على إسماعيل هو ثناء على أفعاله كلها، وقد خص المولى ﷻ منها علاقاته الأسرية للدلالة على أهمية العلاقة الأسرية المُرضية، وأسسها الصحيحة التي تبنى على طاعة الله في عبادته ثم في إحسان الخلق مع الناس زكاةً وتزكية.

٧- مشهد الرجل وحده:

وتصوره آية: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ٥٦ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيّٗا ٥٧ ﴾ [مريم: ٥٦ - ٥٧]. هذه الآية تتحدث عن إدريس عليه السلام، وهو فرد وبصفته الشخصية بأنه كان صديقاً؛ أي ملتزماً بالحق وقائماً عليه في العلم والعمل، فجعله الله نبياً ورفعه مكاناً علياً، فالثناء على تمسكه بالعلم الحق والعمل الصالح.

٨- مشهد الذرية والخلف:

وتصوره الآيات التالية: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا ٥٨ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا ٥٩ ﴾ [مريم: ٥٨ - ٥٩]. هاتان الآيتان تقدّما الخلاصة التي أراد القرآن الكريم التنبيه عليها في الآيات السابقة:

الآية الأولى: تُثني على الذرية الطيّبة والأسر الكريمة بالثناء على الأنبياء وأسرهم وذريتهم الذين اتبعوا الهدى واجتباهم الرحمن برحمته، فكانوا من المصدقين بما أنزل الله في كتبه فتعلموها تلاوةً وصلاةً وعبادةً وخشوعاً،

والتزموا ما نزل فيها سلوكاً وأخلاقاً، فهؤلاء هم الذين أنعم الله عيهم وهم الذين يريد الله -تبارك وتعالى- أن يكونوا قدوة لعباده الصالحين.. قدوة في شخصياتهم الفردية، ومكوناتهم الأسرية (آباء وأمهات وأخوة وأبناء وحفدة من الذرية الصالحة)؛ لتكون قدوة لغيرها أفراداً وأسراً.

الآية الثانية: تذم الخلف السيئ والأسر الضائعة الذين يأتون من أجيال لاحقة ولكن دون أن يتمسكوا بالعلم ويلتزموا بالحق، فأضاعوا صلتهم بالله -سبحانه وتعالى- واتبعوا الشهوات وإشباع الرغبات المادية بطرق ضارة وآثمة، فهؤلاء في غيٍّ وتيه وضياع وضلال وفشل أسري وعجز اجتماعي، وأن المَخرج من هذا الفشل والعجز هو التوبة إلى الله -كما بينته الآيات التالية من السُّور نفسها- طريقةً للنجاة وسبيلاً للخلاص، فقال تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ٦٠ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ٦١ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ٦٢ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ٦٣ ﴾ [مريم: ٦٠ - ٦٣].

هذه ثمانية مشاهد أسرية تتحدث عنها سورة مريم وحدها، وهي معظم صور الحياة الاجتماعية، وكلها ترشد إلى الحياة الاجتماعية القويمة التي يدعو إليها القرآن الكريم على أنها الرمز والنموذج الذي ينبغي أن يقتدى به أسرياً واجتماعياً. وبالنظر إلى تقدُّم تاريخ نزول سورة مريم بوصفها من أوائل السور المكية نزولاً، فإنه يمكن القول إن اجتماع هذه الصور الأسرية والاجتماعية في هذه السُّورة معاً وعلى هذا الترتيب كان لحكمة إلهية عظيمة، لما فيها من دلالات اجتماعية مؤثرة في مسيرة الدعوة الإسلامية في ذلك التوقيت، وأن الدعوة الإسلامية منذ بدايتها كانت متطلعة إلى بناء الأسرة الرَّضية لتكون نواة المجتمع السليم، وليكون المجتمع السليم نواة الأمة الوسطى، ولتكون الأمة الوسطى نواة العالم الآمن والعادل.

أما وقد ابُتلي المسلمون في هذا الزمان بفتن كثيرة لا تقل خطورة عما واجهته الأمة الإسلامية في سابق الأزمنة والأيام، فإن عليهم واجب القيام بمواجهة التحديات كلها، وفي مقدمتها التحديات الأسرية والاجتماعية. فقد كان مما ابُتلي به المسلمون -منذ أكثر من قرن- الغزو الفكري الذي سبق الغزو العسكري الغربي، وكان من أخطار الغزو الفكري الخطر الاجتماعي، فالغرب اتخذ في سياساته التربوية ومناهجه التعليمية ثقافة أسرية واجتماعية أدت إلى تفكك أُسَره، وإلى تدهور أخلاقهم، دون أن يكون ذلك من أصل ثقافته الغربية التقليدية المسيحية. ولعل ما تعرضت له المجتمعات الغربية من عدوان من أدعياء التقدم والتحرر للمرأة وأدعياء النهضة العصرية، ليس له هدف إلا جعل الأسرة سوقاً تجارية أهدافها ربحية اقتصادية رأسمالية فقط، فكل الحياة الاجتماعية في نظرهم قائمة على المنفعة والسلعية في السلوك واللباس والأكل والشرب والرياضة والفن، حتى الثقافة والتعليم القيم، وهكذا.

لقد كانت المجتمعات غير الإسلامية في وجود أُسَري مشابه للحياة الأسرية الإسلامية لـّما قامت على الفطرة الإنسانية، ولكن منذ أكثر من قرن دب الضعف في البنية الأسرية في المجتمعات الغربية ومَنْ تأثر بها، وأخذ السوس ينخر في بيتها، فأهلكها وأفسد مكوناتها من الأزواج والأبناء، ولم يكن ذلك نتيجة حدث عادي أو تطور طبيعي أو تأثر بانعكاسات الثورات الفلسفية الحديثة، ولا نتيجة للحداثة العلمانية الغربية، ولا من موجبات المجتمع الصناعي ولا التكنولوجي -كما يصوره بعضهم، سواء كانوا من علماء الاجتماع الغربيين أو من الباحثين العرب المقلدين-، وإنما كان نتيجة أهواء علمانية فكرية وأهواء اقتصادية تتاجر بكل شيء، وبالأخص في الاختلاف النوعي بين الذكر والأنثى دون ضابط أخلاقي، ولا قانون تربوي، ولا حماية أسرية للأبناء في سن الانتقال من الطفولة إلى البلوغ الجسدي (فيما أطلق عليه سن المراهقة)، فجعلت من هذه المرحلة بين المراهقين سوق تجارة

فاحشة في الربح والأخلاق، وسوقاً في الاستغلال البدني وتغيراته الجنسية والعقلية والأسرية.

لقد سعى علماء الاجتماع الغربيون لحرف الحياة البشرية والأسرية عن أسس المعرفة الصحيحة ومصادرها القويمة، تحت ستار الحرية للشباب والتحرر للفتيات، وذلك نتيجة ردود فعل مضطربة أبعدت الدين عن أن يكون له دور في الحياة الاجتماعية والأسرية، تبعاً لطرده من الحياة الاقتصادية والسياسية، ولتكون الفكرة الأساسية التي تحرك السلوك البشري هي الحرية الفردية، والغاية من العيش هي إشباع الرغبات والتمتع بالحياة دون قيود تضبط الإشباع، ولا حكمة تضبط التمتع، حتى بلغت المجتمعات الغربية ومَن تابعها نقطة الخطر التي تودي بالحياة البشرية إن لم يتم تعديل رؤيتها الأسرية، وإيقاف انحدارها الاجتماعي.

وإذا كانت الشعوب الأوروبية تسعى للخروج من أزمات اجتماعية وسياسية أنتجتها أوضاع فاسدة في إدارة علاقة الدين بالدولة، فإنهالم تكن مضطرة لفرض هذا الاضطراب على الحياة الأسرية كذلك، ولكن -للأسف- انحرفت الحياة الأسرية في أوروبا وأمريكا والحضارة الغربية تبعاً لانحراف الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية عن مسارها الصحيح، كردة فعل على مظالم السلطة الكنسية الدينية، وأوهمت العالم أنها تقوم على مبادئ الحرية والحقوق الإنسانية، بينما هي مستغلة للحريات وحقوق الإنسان في تزكية نفسها كذباً ونفاقاً، واحتقار غيرها بغياً وعدواناً. وبدلاً من أن يهبّ المسلمون لمساعدة المجتمعات الغربية لتصحيح مسارها الاجتماعي -رأفة بالنوع البشري من التردي نحو الهاوية، وكجزء من تحمل مسؤولية الشهادة على الناس بالحق-، سعى بعضهم إلى تقليد الأوروبيين في انحرافاتهم الاجتماعية، وفي تفكيك الروابط الأسرية والروابط الاجتماعية في البلاد الإسلامية، وأخذوا يدافعون عن فلسفة الحضارة الغربية الاجتماعية وهي

في أحط أطوارها، بل ورأوها أرقى ما توصل إليه العقل البشري، وهي في حالة عدوان عليهم واحتلال عسكري لبلدانهم، فاتخذ بعض المفكرين من هزيمته النفسية ذريعة للتغريب والتبعية لرؤاه الثقافية والاجتماعية على أنها سبيل النهضة والحداثة، وظن بعضهم أنها من مستلزمات التطور ومعايير التقدم. فكان لا بدّ -والحالة كذلك- أن يهبَّ علماء المسلمين المخلصين ومؤسساتهم الاجتهادية ومؤتمراتهم العلمية إلى بيان رؤية الإسلام في النظام الاجتماعي، وفي أهمية الأسرة والحفاظ عليها وفق مناهج الإسلام المعرفية في تعليم الكتاب وبيان الرشد أولاً، وفي بيان الحكمة وتبيان الغي ثانياً، وفي التفريق بين الحق والباطل وردّ أباطيل الفاسدين ثالثاً، فحيثما اقترن العلم بالكتاب والحكمة والتزكية مع العلاقات الأسرية والاجتماعية، فهو اقترانٌ للجانب المعرفي مع الجانب الاجتماعي.

خاتمة:

مكانة الأسرة في الإسلام عظيمة، وأحكامها كثيرة، وقد بيّنها الإسلام في مناهج وأساليب متعددة، منها ما ورد في القرآن الكريم -إما بالخطاب المباشر وإما بالخطاب القصصي الاعتباري-، ومنها ما جاء في هدي النبي ﷺ. ولعل أهم ما ركزت عليه الدراسة:

- الجانب المعرفي، وهو أن الإنسان مخلوق قارئ، وبحاجة إلى العلم الحق والهدي المستقيم ولو كان مصدره من الدين. وقد أبعَد الغرب هذا المصدر عن أن يكون مقبولاً فضلاً عن أن يكون مطلوباً، فالاهتمام المعرفي بالإنسان هو أساس كل بناء إنساني أو اجتماعي أو سياسي، مع التأكيد على بطلان نظرية أن التقدم "التكنولوجي" يؤدي حتماً إلى تحرير الإنسان أو إلى تحرير المرأة، بل سعى الغرب إلى تحدير المرأة وصرف الشباب والفتيات نحو الشهوات فقط، فضلاً عما يؤديه من فساد في الأسر والمجتمعات.

- قيم الفلسفة الصحيحة والدين الحق هما مصدر واحد في بناء الإنسان معرفياً، وفيهما ضمان إشباع لكل الغرائز البشرية والعاطفية بالطرق الأزكى والحياة الأطهر، مع المحافظة على الشباب والفتيات في البنية الأسرية والاجتماعية، وحماية كافة حقوقهم ومنع الظلم عنهم أو استغلالهم.
- الاستخلاف في الأرض هو للأسرة وليس لآدم وحده ولا لحواء وحدها؛ أي إنه استخلاف للرجل وللمرأة وليس لأحدهما دون الآخر. وعليه، فمسؤولية الاستخلاف والسيادة على الأرض للذكر والأنثى، وإضعاف أحدهما للآخر هو إضعاف للاستخلاف والاستعمار في الأرض.
- التقاء الرجل بالمرأة هو التقاء اجتماعي -سواء كان في أسرة صغيرة أو كبيرة- له أسس من حيث الحقوق والواجبات معاً.
- يقوم العقد الاجتماعي بين الرجل والمرأة على مفهوم الزواج القائم على الرضا والقبول والمحبة، لما تهيأ له جسماهما من أسباب طبيعية بتقدير الخالق العليم الحكيم، ولما تهيأت له نفسيتيهما من سكينة وطمأنينة واستمتاع وقضاء الرغبة المتبادلة أولاً وإنجاب الأبناء ثانياً.
- كل رغبة جنسية بين الرجل والمرأة لا تقوم على عقد زواج صحيح لا تؤسس أسرة صحيحة ولا صحية ولا تقيم حياة اجتماعية هانئة ولا تبني مجتمعاً قوياً. ومعالجة هذه الأمراض ينبغي أن تبدأ معرفياً وعلمياً بتأهيل الرجل والمرأة بالعلم والمعرفة الصحيحة وشروط الحياة والاجتماعية القويمة، وجعلهما مؤهلين للانصراف عن دعوات الفساد بحريتهما وإرادتهما وقناعتهما العقلية، وطلبهما للحياة الاجتماعية الطيّبة التي يدعو لها الإسلام.
- على علماء المسلمين مسؤولية عظمى في دفع الشر عن المرأة في العالم أجمع، وكشف مكائد الرأسماليين الذين يتاجرون بعواطف المرأة النبيلة وجمالها، ويسوّقونها سلعة شهوانية رخيصة، بغض النظر عن المجال

الذي تروج فيه، إن كان فنّاً أو رياضة أو بيع هوى أو غيره، فينبغي تحرير المرأة من أن تكون مبتذلة ولو في عملها المهني أو طلبها لرزقها بما يعرّضها للجريمة والضياع.

- الأسرة المسلمة الأصيلة هي خير مثال للأسرة الاجتماعية الناجحة. وفي القرآن الكريم والهدي النبوي الاجتماعي نماذج عظيمة ينبغي تسليط الأضواء عليها بكافة الوسائل الإعلامية والتأليف والنشر في هذا المجال، وبالأخص الأمثلة القرآنية في العلاقات الأسرية والحياة الاجتماعية، فالمرأة بشكل خاص في العالم أجمع بحاجة إلى الهدي الإسلامي المعرفي والاجتماعي للتحرير من عبودية الشهوة والمال والاستغلال.

obeikan.com